# الثروات البحرية وطرق صيدها بالغرب الإسلامي من خلال الكتابات الوسيطية.

د. نوال بلمداني*

قال تعالى في كتابه العزيز الحكيم: "**وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**"[1].

يشغل البحر مساحة من سطح الأرض أكبر مما تشغله اليابسة وهو موطن للملايين من الكائنات وتعيش فيه حيوانات ونباتات من مختلف الأشكال والألوان والأحجام، وحيوانات البحر ونباتاته هامة جداً بالنسبة للإنسان كمصدر للطعام، واستخدام البحار لما فيه صالح البشرية قديم قدم التاريخ وتتبدى أهمية البيئة البحرية من خلال تحقيق التوازن المناخي بالإضافة لما لها من أهمية حيوية؛ فالأسماك البحرية تشكل مصدراً رئيسياً للغذاء لدى عدد كبير من الشعوب البحرية كما تذخر البيئة البحرية بالموارد الحية الأخرى بخلاف الأسماك التي تأتي في مقدمة الموارد الحية لهذه البيئة؛ فهناك الحيتان مصدر مادة العنبر بالإضافة إلى اللؤلؤ والمرجان وصوف البحر الثمين، وكذا النباتات البحرية الأخرى.

مارس سكان السواحل في الغرب الإسلامي خلال المرحلة الوسيطية عملية الصيد والتجارة، وكان صيد الأسماك يشكل مصدرا اقتصاديا ومعيشياً لأولئك السكان، وخلال عملية الصيد تلك، وفق بعض الصيادين في الحصول على مواد ثمينة كالعنبر واللؤلؤ والمرجان، وهنا نتساءل عن مصدر هذه المواد؟ وكيف كانت تتم عملية صيدها؟.

**1- العنبر**: يعد العنبر إحدى الثروات الهامة التي تمكن البحارة من الحصول عليها، وكان لها دور في المجالات الطبية والكمالية، غير أن الآراء اختلفت بشأن مصدره؛ فاليعقوبي أحمد بن أبي يعقوب بن واضح (284هـ/896م) يخبرنا قائلا: "وزعموا أنه يخرج من البحر في خلقة البعير أو الصخرة الكبيرة"[2]، ويضيف المؤلف نفسه قائلا: "وحدثني أبي عن أبيه عن أحمد بن أبي يعقوب قال: تقطعه الريح، وشدّة الموج فترمي به إلى السواحل، وهو يفور لا يدنو منه شيء لشدّة حرّه

* أستاذة محاضرة ب في تاريخ المغرب الإسلامي- شعبة التاريخ- قسم العلوم الإنسانية- جامعة مصطفى اسطمبولي- معسكر.

وفورانه، فإذا أقام أيّاما، وضربه الهواء جمد، فتجمعه الناس من السواحل المتصلة بمعادنه"[3]، وفي نص أخر يقول: " قال أحمد بن أبي يعقوب: قال لي جماعة من أهل العلم بالعنبر أنه بجبال نابتة في قرار البحر، مختلفة الألوان، تقتلعه الرياح وشدّة اضطراب البحر في الأشتية الشديدة، فلذلك لا يكاد يخرج في الصيف"[4] .

أمّا الطبيب ابن الجزار (395هـ/1004م) فيعرفه على أنه "شيء تلقيه دابة من دواب البحر من بطنها تشبه البقرة"[5]، وهو المعروف بالعنبر الخام، أمّا عن العنبر المبلوع يضيف المؤلف نفسه قائلا: "وذكر الذين يأتون من المغرب من ناحية طنجة وما قاربها أنهم يجدونه في جوف دابة عظيمة من دواب البحر تسمى البلينة تخرج من البحر المحيط"[6]، هذه الدابة- البال- يعرفها العمري بقوله: "صنف من السمك معروف، طوله خمسون ذراعا... يأكل العنبر، ويموت من أكله فيطفو، فيؤخذ العنبر من بطنه"[7]، أمّا شيخ الربوة فيخبرنا أن هناك نوع من السمك يعرف ب "أوال" يقوم بابتلاع هذه المادة فيموت "من شدة حرارته فترميه الأمواج... فيشق عنه جوفه ويستخرج منه وله رائحة زهمى"[8].

وممن تحدث عن ماهية العنبر ابن وافد الأندلسي (460هـ/1068م) الذي قال أنه "ينبت في قعر البحر، ويتكون فيه كتكون أنواع الفطر والكمأة من الأبيض والأسود، فإذا خبث البحر واشتد قذف من قعره الصخور والأحجار وقطع العنبر"[9]، وقيل هو روث دابة بحرية، وقيل هو شيء ينبت في قعر البحر فتأكله بعض دواب البحر فإذا امتلأت منه قذفته رجعيا وهو في خلقته كالعظام من الخشب، وهو دسم خوار دهني يطفو على الماء ومنه ما لونه إلى السواد وهو مرذول وهو جاف قليل النداوة وهو عطر الرائحة"[10]، وممن تحدث عن العنبر الشريف الإدريسي وأشار إلى أن بعض الناس ظنوا أنه رجيع دابة[11]، غير أنه جزم قائلا: "هو شيء تقذف به عين في قعر البحر... فإذا اشتد هيجان الريح رمى به إلى الساحل"[12]، وهو ما يذهب إليه المسعودي مضيفا أن الله تعالى "ما خلق دابة تروث العنبر"[13].

وعن هذه الدابة يخبرنا القزويني (682هـ/1283م) قائلا: "بقرة الماء، زعموا أنه حيوان يطلع إلى البر للرعي روثه عنبر، والله أعلم بصحته. فإن الناس ذهبوا إلى أن العنبر ينبت في قعر البحر كالقير والنفط"[14]، وبعد عرضه كل الآراء الواردة حول هذه الثروة البحرية الهامة يختم صاحب كتاب "عجائب المخلوقات" القول أنّه "لا خلاف في أنّ تولده في البحر والبحر يقذفه إلى الساحل"[15]، أمّا ماهية العنبر فتؤكد الأبحاث الحديثة على أنّه نتاج حوت ضخم من الثدييات

البحرية يصعد باستمرارٍ إلى السطح بين نوبات غوصه ليتنفّس الهواء لمدة ثمانية دقائق، ثم يعود للبحث عن الغذاء من جديد[16]، وفي الأصل هو مادة صلبة شمعية ينتجها الجهاز الهضمي لحوت العنبر، وهي مادة زكية الرائحة، وقد يجده البحارة طافيا على الماء أو بالقرب من الشاطئ أو يتم استخراجه من أمعاء الحوت، وهذه المادة تكون رخوة أثناء خروجها من بطن الحوت ولونها سنجابي مسود، ويكون حجمها كبير ويصل وزنه إلى 100 رطل، أمّا طول حوت العنبر 15 -18

متر ووزنه 35 إلى 45 طن[17]، وحجم هذا النوع من الثدييات توضحه لنا الصورة أدناه:

مهما اختلفت الآراء بشأن أصل العنبر من خلال المصادر الوسيطية المختلفة، إلاّ أنّ الصور توضح أنّ أصله حوت يتميّز بهيئة جسدية فريدة، تجعل تمييزه سهلاً عن باقي أنواع الحيتان وتنبع فرادة مظهر هذا الحوت من رأسه شديد الضخامة ومستطيل الشكل، وذيل شديد السماكة ومثلّث الشكل، وهذا ما تؤكده عبارة الحسن الوزان بقوله: "العنبرة سمك مرعب فظيع في شكله وحجمه، ولا يرى أبدا إلاّ ميتا، لأنّ البحر يقذف به على الشاطئ، ورأسه صلب جدّا كأنه حجر"[18].

أمّا عن أنواع هذه المادة- العنبر-، فقد أشرنا إلى الخام منها، والمبلوع هو الذي تبتلعه بعض الأنواع من الأسماك عندما يهيج به البحر[19]، وهناك نوع آخر عرف بالمناقري وسمي بذلك لأنه "لا ينقر منه طائر إلا انفصل منقاره، وإذا وضع عليه رجليه فصلت أظافره..."[20]؛ كما أن المستخرج منه له قوام الشمع وبألوان مختلفة، وعن أجوده يفيدنا الدمشقي قائلا: "أجوده ما جلب من شحر عمّان وخير أوصافه الخفّة والبياض والدهنية أو أن يميل لونه إلى الخضرة والصفرة ميلاً يسيراً. ثم المغربي ما كان منه في الأوصاف المحمودة... وأحسنه المند ولونه يضرب إلى السواد.

والمرمّل والناشف وما ثقل وزنه. ويجب أن يكون الاحتفاظ عليه من النار أكثر"[21]، كما يصنف ضمن مجموعة أصول الطيب الخمسة وهي "المسك والكافور والعود والعنبر والزعفران كلها من أرض الهند إلا الزعفران والعنبر فانه يوجد بأرض الزنج والشحر والأندلس"[22].

ويصفه اليعقوبي بقوله: "فأما العنبر المغربي فانه دون هذه الأنواع كلها، يؤتى به من بحر الأندلس، فتحمله التجار إلى مصر، وهو شبيه في لونه بالعنبر الشحري، وقد يغالط به فيه ..."[23]، ويؤكد ابن رشد أنّ العنبر الأشهب هو الأفضل[24]، أما ابن الجزار فيقول: "وأجود العنبر الأزرق الدسم كثير الدهن"[25].

أمّا مناطق تواجد هذه المادة البحرية فقد اختلفت من منطقة إلى أخرى؛ فبالنسبة لبلاد المغرب لم نصادف أي نص يثبت تواجدها، أمّا السواحل الأندلسية المطلة على المحيط الأطلسي فقد اشتهرت بها، منها إشارة المقدسي قائلا: "ويقع إليهم من البحر المحيط عنبر كثير في وقت من السنة"[26]، ومن بين المناطق الساحلية مدينة شنترين التي ذكرها الاصطخري قائلا: "وشنترين على البحر المحيط بها يقع العنبر ولم نعلم ببحر الروم والبحر المحيط موضع عنبر إلاّ بشنترين"[27]، ويضيف القزويني أنّ بها العنبر "الجيد الذي يقذفه البحر إلى ساحله في بعض الأوقات..."[28]، كما كان يخرج من ساحل شذونه " أطيب العنبر العربي الوردي"[29].

ومن النصوص الكاشفة عن وجود العنبر بالسواحل الأندلسية ما يخبرنا به ابن غالب قائلاً: "ويلقى بريف أشبونة العنبر الفائق المتناهي كثيراً، وهو يفوق كل عنبر ولا يشبهه إلا الهندي"[30]، ويتركز وجوده في أكثر سواحل الغرب، وكذلك مدينة أكشونبة، التي يخرج من بحرها العنبر[31]، ويخرج من شنتره عنبر جيد[32]، كما نجده في سواحل قصر باجه، وقد اشتهرت به مدينة شلب إذ يخرج في سواحلها من البحر المحيط[33].

ويكثر استعماله في الأندلس في شهر رمضان في المسجد الجامع (بقرطبة) ولاسيما في الليلة التاسعة والعشرين وهي ليلة الإحياء على ختم القرآن وقد أشار ابن غالب إلى هذا قائلاً: "ويحترق في الليلة المذكورة من الشمع ثلاثة مناطير، وأما من الند والعنبر فكثير"[34]، كما تدخل مادة العنبر أساسا في صناعة العطور والأدوية؛ إذ يصف ابن الجزار خصائصه العلاجية ويؤكد على أنه "مقو للقلب والدماغ"[35]، وهو نافع للفالج وأمراض البلغم الغليظ وهو سيد الطيب واختباره بالنار"[36]، أما بن زهر فيقول: "الطيوب كلها عموما تقوي الدماغ والحواس وتنفع الأعضاء بخاصية فيها... وطيوب الربيع... العنبر"[37]، وينفع من "أوجاع المعدة الباردة، ومن الرياح الغليظة

العارضة في الأمعاء ومن السدد، وإذا طلي من خارج يقوي الأعضاء وبخاصة الأعصاب، ويقاوم فساد الهواء المحدث للموتان، إذا أدمن شمه وإذا شرب"[38]، كما أنه "يقوي القلب ويقوي الأرواح جميعها في أعضائها"[39].

هذا إلى جانب دخوله كمادة في العديد الوصفات العلاجية مثل تساقط الشعر[40]، واستخدمته النساء على وجه الخصوص في تعطير أجسامهن[41]، ناهيك عن أهميته كسلعة في مجال التبادل التجاري كمادة تصدر من المغرب إلى المشرق[42].

خلاصة القول، العنبر مادة كان لها حضور ضمن بعض المؤلفات المصدرية الوسيطية، وكانت إحدى الموارد الهامة التي سعى صيادوا الغرب الإسلامي للحصول عليها، ومهما اختلف الآراء حول ماهية العنبر وطبيعته، وتعدد أنواعه واختلافها فانه مادة ذات قيمة، مطلوبة في مجال الطب كما في غيرها من الصناعات وخاصة العطور.

**2- الأسماك البحرية:** عرفت سواحل الغرب الإسلامي تواجد أنواعا كثيرة من الأسماك، لكل صنف اسم خاص، منها كبير الحجم ومنها الصغير، وهذا التنوع أبرزته جل المصنفات الجغرافية العربية الوسيطية؛ خاصة إذا علمنا أن الصيد البحري شكل أحد المصادر الغذائية الهامة، وحرفة يسترزق منها العديد من الأفراد، ومن الإشارات الدالة على أهمية الثروة السمكية بالنسبة لأفراد المجتمع بالغرب الإسلامي، وصف الإدريسي لبعض السواحل غير البعيدة عن شرشال قائلا: "وبها قوم صيادون للحوت"[43]، ويكشف لنا الحسن الوزان أنّ سكان دلس "تعودوا جميعا اصطياد السمك بالشباك، فيحصلون على كمية وافرة منه لا تباع ولا تشترى، وإنما يهدونه لمن يرغب فيه"[44]، ويخبرنا ابن حوقل أن قرية مرسى الخرز لها من صيود السمك ما لم ير ببلد مثله "سِمَنًا وربما منع جانبه من أكل ما يصاد بها وسيّما وقت الغلاّت"[45]، ويشير الدباغ إلى صيد التنّ في المنستير بقوله: "اشتهى (أبو علي حسن بن خلدون البلوي) مرّة بالمنستير تنّا مقلوا، فاشترى حيّة فيها أزيد من قنطارين..."[46].

ولم تختلف سواحل مدينة باجة عن غيرها من سواحل الغرب الإسلامي، إذ كان "بها حوت بوريّ، ليس له في الأفاق نظير، يخرج من حوت واحد عشرة أرطال شحم وأكثر، إذا كان من جلّتها"[47]، ويؤكد صاحب الاستبصار أنّ "أهل تلك النواحي يستخرجون دهنه ويستعملونه في مصابيحهم"[48]، وبمدينة جيجل "حوت كثير العدد المتناهي الطيب والقدر"[49]، وغربي مدينة بونة يوجد "بركة بينها وبين بونة مسيرة ثلاثة أميال في مثلها، وفيها سمك جليل"[50]، وهو نفس ما

أشار إليه صاحب كتاب "نزهة المشتاق"[51]، أمّا صاحب "الاستبصار" فيذكر بأنّها "من أنزه البلاد وأكثرها لبنا ولحما وعسلا وحوتا"[52].

ومن مدن المغرب الإسلامي أيضا مدينة تونس، التي أطنبت المصادر الجغرافية في وصف ثرواتها السمكية، إذ كان بها حسب وصف البكري لها "من أجناس الحوت الذي لا يكون مثله في غيرها ما لا يحصى كثرة في أجناس تجري في البحر مع شهور العجم، في كل شهر من تلك الشهور يجري فيه جنس منه، لا يوجد في البحر إلى دخول ذلك الشهر من العام المقبل. فهم من تجدّدها في لذّة موصولة، ونعمة غير مملولة"[53]، ويؤكد صاحب "الاستبصار" (ق6هـ/12م) هذا التنوع قائلا: "فيها من أجناس الحوت البحري ما لا يحصى كثرة"[54].

ومن المدن الساحلية التي لقيت اهتمام الجغرافيين مدينة بترت، هذه المدينة البحرية يشقها نهر كبير كثير الحوت[55]، ومنها كان أكثر حوت تونس، وعن خصية المدينة يخبرنا صاحب الاستبصار قائلا: "أكثر ما يتمكن من صيد الحوت ما بين البحر وهذه البحيرة، وذلك أن الحوت يتوالد في البحر ويخرج منه صغيرا كالذر فيتربى في هذه البحيرة، ثم يرجع في وقت سفاده وولادته إلى البحر، فيصطاد في البحر الذي بينهما"[56]، وعن هذا النوع يخبرنا صاحب "الاستبصار" قائلا: "يصطاد في كل شهر من الشهور الأعجمية نوع من الحوت لا يوجد ذلك النوع إلى ذلك الشهر بعينه في العام المقبل، ولها غلة عظيمة فإن منها يحمل إلى جميع بلاد إفريقية"[57].

وبالقرب من طنجة موضع يعرف بماء الحياة يوجد فيه "دون غيره حوت ينسب إلى موسى، عرضه مقدار ثلثي شبر، وطوله أكثر من شبر، لحمه في أحد جانبيه، والجانب الآخر لا لحم فيه، إنما جلدته على الشوك، ولحمه طيب نافع من الحصاة، مقوّ للباءة"[58]، غير أن القزويني يذكر هذا النوع عند حديثه عن مدينة سبتة قائلا: "وهي سمكة أطول من ذراع وعرضها شبر نصفها عظام وشوك، عليها غطاء رقيق يحفظ أحشاءها. ومن رآها من ذلك الجانب يحسب أنها ميتة مأكولة، والنصف الآخر صحيح كما يكون السمك الصحيح "[59]، ويخبرنا بن الوردي سراج الدين (ت861هـ/1457م) أن ناس هذه المدينة يتبركون بها ويهدونها إلى الرؤساء[60]، كما وجد بمدينة سبتة "مصايد للحوت ولا يعدلها بلد في إصابة الحوت وجلبه ويصاد بها من السمك نحو من مائة نوع ويصاد بها السمك المسمى التن الكبير الكثير وصيدهم له يكون زرقا بالرماح وهذه الرماح لها في أسنتها أجنحة بارزة تنشب في الحوت ولا تخرج وفي أطراف عصيها شرائط القنب الطوال ولهم في ذلك دربة وحكمة سبقوا فيها جميع الصيادين لذلك"[61].

أمّا بالنسبة للثروات السمكية التي نعمت بها الأندلس خلال تلك المرحلة فقد تنوعت بين بحرية ونهرية، لذا اشتغل بعض السكان بحرفة الصيد خاصة عند السواحل وضفاف الأنهار، حيث مصائد الأسماك كمدينة بطليوس[62]، ومدينة أشبيلية التي يصفها العذري قائلاً: "وفضل صيدهم في البر والبحر"[63]، وكانت المنكب "مدينة حسنة متوسطة كثيرة مصايد الأسماك"[64]، واشتهرت بعض السواحل بصيد الأسماك كساحل مالقة قرب مربلة[65]، ويوجد به "حوت عظيم يفوق حوت البحر كله في لذته وطعمه"[66]، ومن بين هذه الأنواع سمك "الشفنين البحري"[67]، "وكان يباع في قرطبة من أنواع السمك المملوح وغيره في كل يوم على اختلاف أجناسه أيام جريانه..."[68]، كذلك اشتهرت بزليانه وهي قرية على ساحل البحر قريبة من مالقة بصيد اسماك الحوت وتصديرها، ويشير الإدريسي إليها بقوله: "فيها شباك يصاد بها الحوت الكثير ويحمل منها إلى تلك الجهات المجاورة لها "[69]، ويتضح أن الصيادين الأندلسيين كانوا يستخدمون الشباك في صيدهم.

وعن نفس الجزء من الغرب الإسلامي (الأندلس) يخبرنا صاحب كتاب "الجعرافية" أن الحوت المسمى بـــ"التن" "يصاد في الموضع المسمى بالقنتبك أمام البحر المعروف بحجر الأيل في غرب الجزيرة الخضراء. ويصاد بينها وبين جزيرة طريف ولا يعلم ما يصاد منه في هذا المكان إلا الله عز وجل... وإذ كان أول يوم من شهر يونيو رجع على طريقه إلى موضعه فينتهي إلى أول الزقاق. فيصاد بالموضع المسمى بطرف الفخ وهو طرف جبل طارق...فما دخل منه في حوز مربله أخذ بالشباك وما خرج منه على طرف الفخ إلى ساحل المغرب أخذ في المكان المسمى بتلمسان من عمل سبته وما شق منه على وسط الزقاق في شرق جزيرة طريف وركب شوكة البحر جاز إلى مكانه وغار إلى موضعه الذي يخرج منه حتى إلى عام ثان فيخرج مرة ثانية. هكذا دأب هذا التن على طول الدهور والأعوام. وليس في البحر حوت أسمى منه ولا أطيب. ولا يؤكل في معمور الأرض طرياً إلا من الأندلس... وقد يصاد أيضاً بطول هذا النهر في الموضع الذي يعرف بكلب ما بين مدينة دانية والموضع المعروف بمرير من سواحل بلاد الأندلس. وقد يصاد أيضاً بطول سواحل الأندلس...على طول شهر مايو..."[70]، إنّ النص أعلاه في غاية الأهمية، إذ لم يكتف صاحبه بذكر تواجد مادة التن بمياه الأندلس البحرية، بل أفادنا بوقت تحرك هذا الكائن البحري عبر المحيط، وكذا المناطق التي قد يستقر بها طوال السنة، ومن الأمور الهامة الأخرى وهي كيفية الصيد التي

اعتمدت أحيانا على الشباك، هذا بالإضافة إلى الإشارات الخاصة بالأماكن المناسبة لصيد هذا النوع من الأسماك بهذا الجزء من البحر.

كما اشتهر ساحل شذونه بصيد حوت التن، وعنه يقول الحميري: "وبساحل شذونه يوجد حوت التن لا في غيره من سواحل الأندلس، ينظر في أول شهر ماية، لا يرى قبل هذا الشهر، فانه يخرج من البحر المحيط فيدخل إلى البحر المتوسط الذي يسمى البحر الرومي، فيصيد مدة ظهوره أربعين يوماً، ثم يعود عن مثل ذلك الوقت من العام الآخر"[71]، ويعرف ابن البيطار هذا الصنف فيقول: "وهو حوت ينشأ في البحر المظلم ويدخل بحر الشام في أول شهر مايو وهو أيار ويصاد بالشباك وهو حوت كبير سمين"[72]، هذا بالإضافة إلى الكميات الكبيرة من الأسماك التي كان يصطادها صيادوا مدينة شلوبنية التي تقع على البحر المتوسط على بعد ستة عشر كيلو مترا شرقي ميناء المنكب[73]، ويعرفنا ابن رشد من جهته بأنواع الأسماك المحمودة بالأندلس فيقول: "ومن الأنواع المحمودة عندنا منها البوري ويتلوه الشابل، إلاّ أنه أعظم جرما منه"[74].

ومن الواضح حسب النصوص المشار إليها أعلاه، أن تحديد أشهر توفر الأسماك البحرية وإرشاد صيادي المغرب والأندلس على صيد أنواع منها في أشهر معينة لتوفرها، دليل على اهتمام أهل المنطقة بصيد الأسماك لتوفرها في مياههم.

أمّا عن الكيفية والأدوات التي استعملت في عملية الصيد فقد تنوعت حسب طبيعة الأفراد الممارسين لعملية الصيد، منهم من استخدم الخيط والصنارة، ومنهم من استعمل الشباك، ومنهم من استعان بآلة ...إلخ، وعن ذلك يخبرنا صاحب كتاب "المستفاد في مناقب العباد..." أن ابن لَنْجِوا وقف عند شخص بساحل البحر-الأندلس- ؛ فخرج هذا الرجل عند غروب الشمس وأخرج "خيطا وفيه سنارة، فألقى الخيط في البحر، ورفع حوتا واحدا"[75]، كما يشير الغبريني إلى آلة استعملها أهل دلس قائلا: "حدثني أبو محمد عبد الله بن علي بن عبد المعطي بدلس قال خرجنا مع الشيخ (أبو الفضل قاسم بن محمد القرشي القرطبي) نفع الله به وركبنا البحر، وحملنا آلة الصيد للحوت، و لم نزل نتصيد إلى قريب الظهر...."[76]، غير أنّ صاحب النص لم يوضح نوع هذه الآلة ولا كيفية استعمالها، ولا نستبعد تواجد مراكب خاصة بصيد الأسماك بسواحل تنس، علما أنها من المناطق المعروفة بصيد المرجان [77].

غير أنّ الاستهلاك اليومي دفع ببعض الأفراد إلى استخدام تقنيات بسيطة تساعدهم على توفير قوت يومهم مثلما كان يفعل بعض أهل بجاية؛ إذ كانوا ينزلون البحر ويصيدون السمك على

الأحجار بأيديهم[78]، ويحكي أبو مدين أنه وصل البحر ووجد خيمة فيها ناس فخرج إليه شيخها وسأله عن أمريه فأخبره؛ فجلس عنده وإذا جاع رمى بخيط في طرفه مسمار فأخذ حوتا وأطعمه لأبي مدين مشويا[79]، ويفيدنا ابن قنفذ بأداة بسيطة استعملها الشيخ أبو مروان الفحصبلي اليحصبي وتمثلت في قصبة صيد وسنارة[80].

في الواقع واعتمادا على النصوص التي زودتنا بها المصادر التاريخية على مختلف أنواعها، يتضح أن هذه الطرق البسيطة كانت معتمدة من قبل الفقراء والمتصوفة والمرابطين، اللذين كانوا يفضلون الأكل مما عملته أيديهم، مفضلين السمك لنقاوته من الغصب والغش والحرام، لذا كان أبو بكر محمد بن إسحاق بن السليم (ت364هـ/975م) يتصيد الحيتان ويقتات من ثمنها[81]، حتى الجبنياني كان يصيد بيده من البحر لقوته ويتصدق منه[82]، والشيخ أبو زكريا يحيى ابن أبي علي المشتهر بالزواوي (ت611هـ/ 1214م) إذا اشتهى "أكل اللحم يترل البحر فيصيد السماك على الأحجار"[83]، وبحوت البحر كان يقتات أبو حفص عمر بن معاد الصنهاجي[84].

***جدول توضحي ببعض أنواع الأسماك بالغرب الإسلامي من خلال المصادر التاريخية الوسيطية:**

| المدينة | نوع الأسماك | المصدر |
|---|---|---|
| باجة | البوري | البكري، المسالك والممالك، ج2، ص237، مجهول، الاستبصار، ص126. |
| التن | المنستير | الدباغ، معالم الإيمان، ج3، ص153. |
| العبانق، الاكتوبرىّ، الأشبارش، الملكوس، البقونس. | تونس | البكري، المصدر السابق، ج2، ص216/ القزويني، أثار البلاد في أخبار العباد، ص173. |
| سمك موسى | طنجة | البكري، المصدر السابق، ج2، ص288. |
| الشفنين البحري | مربلة قرب مالقة | أبو الفضل العمري، مسالك الأبصار، السفر الرابع، ص235. |
| الأبرق | مالقة | ابن البيطار، منافع الأدوية، ج2، ص85. |
| سمك موسى | سبتة | القزويني، عجائب المخلوقات، ص 112. |
| التن | القنتبك غرب الجزيرةالخضراء | الزهري، كتاب الجعرافية، ص120 |
| التن | شذونة | الحميري، الروض المعطار، ص101 |
| المنارة | بحر الروم | ابن الوردي، خريدة العجائب، ص150/ القزويني، المصدر السابق، ص113. |
| الخطاف يذكرها القزويني باسم (الطاف) | بحر الروم | ابن الوردي، خريدة العجائب، ص149/ القزويني، المصدر السابق، ص113. |
| حوت درنة- البوري | باجة | البكري، المسالك والممالك، ج2،ص 237. |
| الشولي، الشابل، المناني، الكمون، النوري، الجبليل، الجرافة، الشطون، الملـ، الكحلة، الطردنس | المغرب والأندلس | ابن رزين التجيبي، فضالة الخوان في طيبات الطعام والألوان، صص197-200. مجهول، أنواع الصيدلة في ألوان الأطعمة، ص 151 |
| السردين، الجركم | المغرب والأندلس | ابن رزين التجيبي، المصدر نفسه، ص200. |

| | | |
|---|---|---|
| السلباح (السلور) | المغرب والأندلس | ابن رزين التحيي، المصدر نفسه، ص207 |
| جراد البحر | المغرب الأوسط | ابن البيطار، الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، ج1، ص221 |
| الشابل، الشولي | اشبيلية، قرطبة | مجهول، أنواع الصيدلة في ألوان الأطعمة، ص 149 |
| القبطون | المغرب والأندلس | مجهول، أنواع الصيدلة في ألوان الأطعمة، ص 150 |
| الأبرق | مالقة | ابن البيطار، ض: 2001، 2،85 |

وما تجدر الإشارة إليه، أنّ وفرة وتنوع الأسماك بمواضع الإنتاج حتم تحويل جزء هام من المنتوج إلى مادة غذائية أو تجارية مصنعة قابلة للترويج دون فسادها؛ فالأسماك باعتبارها سلعة سريعة التلف خاصة عند نقلها من المناطق الساحلية إلى المناطق الداخلية، كان على الأفراد البحث عن طرق للحفاظ على جودتها، كاستعمال مادة العسل، إذ يخبرنا البكري أن حوت باجة كان يصل إلى عبيد الله المهدي "في العسل فيحفظه ويظل طريا"[85]، ويضيف السقطي مادة الملح [86]، وهو ما يؤكده مؤلف كتاب "الأغذية" بقوله: "والناس يقددون الحوت بالملح... فانه يكتسب حرارة من المكث ببعض تعفن ويكتسب من حرارة الملح ومن تجفيفه فيكون جوهره ألطف وغذاؤه أقل"[87]، ولعل هذا ما يفسر سبب بقاء الأسماك المملحة في بترت "أعواما صحيحة الجرم لذيذة الطعم"[88].

نفس التقنية اتبعها سكان مدينة ترغّة الواقعة على ساحل البحر المتوسط، إذ كانوا "صيادون يملحون ما يصطادونه من سمك ويبيعونه لتجار الجبل، ويحمل إلى مسافة تناهز مائة وعشرون ميلا في داخل البلاد"[89]، حتى أهالي مدينة باديس الساحلية كانوا يملحون السردين ويرسلونها إلى المناطق الداخلية [90]، وهنا يجب الحديث عن وسائل النقل التي كانت أمرا ضروريا لنقل أحمال السمك من مكان الاصطياد إلى أماكن الاستهلاك؛ فعلى بعد ميلين من مدينة فاس كان يصطاد سمك "الشابل والبوري وأصناف الحوت، ويحملون منها أحمالا إلى المدينة فتصل طرية لم تتغير"[91] وهذه العملية كان يرجى منها السرعة حتى تحتفظ الأسماك بجودتها[92].

حتى الأندلسيون مهروا في معالجة الأسماك وتمليحها وتجفيفها، منها مدينة قرطبة التي فاقت في تصنيع الأسماك المملحة، فكان يباع فيها من أنواع السمك المملوح وغيره في كل يوم على اختلاف أجناسه أيام جريانه بعشرين ألف دينار[93]، وما يؤكد وصول الأسماك إلى المناطق الأندلسية الداخلية سليمة إشارة المقري إلى كثرة أماكن بيع السمك قائلا: "حيثما سار المسافر من الأقطار يجد الحوانيت في الفلوات والشعاري والأودية ورؤوس الجبال لبيع الخبز والفواكه والجبن واللحم والحوت وغير ذلك من ضروب الأطعمة " [94].

**3- اللؤلؤ:** قال تعالى: "**مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ، بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ، فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ، يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ، فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**"[95]، وردت مفردة اللؤلؤ في العديد من آيات القرآن الكريم[96]، وهو من نعم الله الباطنية التي لفت القرآن الكريم أنظارنا إليها، أودعها سبحانه وتعالى في عمق البحار ومن الطبيعي أن يقوم الصيادين بعملية صيدها.

عرف اللؤلؤ بالدر وبأسماء أخرى عددها البيروني بستة عشر (16) اسما[97]، وهو في الأصل صدف[98]، أشبه شيء بالكواكب الكبار[99]، ويصف التيفاشي، أبو العباس أحمد بن يوسف هذه الجوهرة الثمينة قائلا: "صدفتان ملتزمتان لجسم والذي يلي الصدفتين من لحمه أسود ولهذا الحيوان فم وأذنان وشحم يلي الفم من داخلها إلى عامة الصدفتين والباقي رغوة وصدفة وماء"[100]، وهي حقيقة الصدفة اللؤلؤية كما وصفتها إحدى الدراسات المرجعية مضيفا صاحبها أنّ الصدفة تتركب من ثلاث طبقات بعضها فوق بعض، وتنمو في نفس الوقت، والداخلية منها تسمى أمّ اللؤلؤ ولها تركيب كيميائي مشابه لتركيبه[101]، وبهذا يكون في أصله حيوان وأعجب ما في البحار، يهبط إلى الأعماق وهو داخل صدفة من المواد الجيرية لتقيه من الأخطار، وعن ذلك يفيدنا صاحب كتاب "خريدة العجائب وفريدة الغرائب" قائلا: "زعم البحريون أن الصدف الدري لا يكون إلاّ في بحر تصب فيه الأنهار العذبة، فإذا أتى الربيع كثر هبوب الريح في البحر وارتفعت الأمواج واضطرب البحر. فإذا كان الثامن عشر من نيسان خرجت الأصداف من قعور هذه البحار ولها أصوات وقعقعة، وبوسط كل صدفة دويبة صغيرة"[102].

والملاحظ من خلال إحدى المصادر المطلع عليها أن أفضله القار وهو المستدير الشكل من سائر جهاته، النقي اللون الحسن المائية، وهو الوبيص والجوهرية وهي الإشراق: وكل ما كان من الجواهر بهذه الصفة يسمى الرطب. وإذا كان وزن اللؤلؤ منها مثقالاً، وهي بهذه الصفة كانت قيمتها ثلاثمائة دينار وعيوب اللؤلؤ: التصريف وتغير الشكل عن الاستدارة والصفرة والابتراص وسعة الثقب واعوجاجه والترنير، والأشياء التي تضره : الادهان جميعها والحموضات كلها لاسيما ماء الليمون ورهج النار والاحتكاك بالأشياء الخشنة[103]، ويضيف ابن الوردي قائلا: "وأفضل الدر المتكون في هذه الأصداف القطرة الواحدة ثم الاثنان ثم الثلاثة، وكلما كثر العدد كان أصغر جسما وأخس قيمة، وكلما قل العدد كان أكبر جسما وأعظم قيمة"[104]، أمّا السبب المباشر في تكوين اللآلئ هو حدوث التهاب مفاجئ نتيجة مرض يصيب الحيوان الرخو، أو دخول طفيل إلى جسمه اللحمى أو حبة غريبة مثل حبة رمل، أو قطعة صغيرة من فتات صدفة[105].

أما بالنسبة لمناطق تواجد هذه الثروة الثمينة فتفيدنا بعض المصادر الجغرافية الوسيطية بنصوص تكشف عن مناطق انتشارها، منها بناحية برشلونه التي وصفها البكري قائلا: "ويوجد اللؤلؤ بناحية برشلونة، إلا أنه جامد اللون"[106]، وكان من أهم المراكز لصيد اللؤلؤ نهر قرطبة (الوادي الكبير) وفي هذا يقول الزهري:" يوجد فيه الجوهر في صدفه، وشهرته أغنت عن وصفه"[107]، ومن الواضح أن المياه البحرية بالمغرب الإسلامي لم تكن بيئة مناسبة للأصداف اللؤلؤية، ماعدا بحر مدينة صفاقص الذي قال عنه التجاني في رحلته: "وربما وجد في بحرها صدف يشتمل على لؤلؤ صغير الحب"[108]، رغم هذه الإشارة الوحيدة إلاّ أنّ صاحبها لم يجزم على تواجد اللؤلؤ ببحر صفاقص.

وعن كيفية صيد اللؤلؤ يفيدنا صاحب كتاب "أزهر الأفكار في جواهر الأحجار" قائلا: "إذا تركت (الدّرة) حتى يطول بها المكث تغيرت وضمرت كالثمرة إذا بقيت في الشجرة لم تقطف في وقتها. ذهب تطايرها وطيب طعمها ثم يأتي الغايص إلى خشبات من خشب المقل معروفة في مواضع الدّر، يعلم بها الغايص المواضع التي جرت العادة أن يكون فيها، فإذا رأى الصدف وقف مركبه قائما ويدلي حبلا من ليف المقل أو غيره فيه حجرا ينقله إن كان للماء حركة، ثم يتدلى الغايص بحبل وثيق مشدود به حجر يكون وزنه ستون رطلا أو نحو ذلك من حجارة سود... فإذا غاصوا أو وصلوا إلى الصدف قطعه الغواصين بحديدة مهيأة لذلك مثل المناجل من أصله ووضعوه في مخال لهم من شريط كالشبكة ليسيل منها الماء ويبقى الصدف فإذا خرجوا به إلى الساحل استخرجوا ما فيه"[109].

يدخل اللؤلؤ في عدة صناعات منها ترصيع التيجان[110]، كما يخبرنا الإدريسي أن أهل الإسلام وجدوا بطليطلة عند افتتاح الأندلس أكيال وأوساق من الدر[111]، وهذا دليل على وفرة هذا الجوهر عندهم، أمّا الخصائص العلاجية، فاللؤلؤ "يابس لطيف نافع من أوجاع القلب مقوّ له بجملة جوهره مذهب للحزن ويقوي العيون الرطبة"[112]، وإمساكه "في الفم يقوي القلب عموما"[113].

**4- المرجان:** المرجان من عجائب مخلوقات الله، يعيش في البحار على أعماق تتراوح بين خمسة أمتار وثلاثمائة متر، وأصله البسد ومنه يصنع خرز المرجان الكبار، يعرفه ابن حوقل قائلا: "والمرجان نبت ينبت كالشجر في الماء ثم يستحجر في نفس الماء بين جبلين عظيمين"[114]، ويضيف التفاشي (651هـ/1253م) أنّ تكون هذا الكائن "متوسط بين عالمي الجماد والنبات،

وذلك أنه يشبه الجماد لتحجره ويشبه النبات كونه أشجارا ثابتة في قعر البحر ذوات عروق وأغصان خضر متشعبة قائمة... فالمرجان يشبه المعدن بجسده ويشبه النبات بروحه"[115]، وهناك من يعرف على أنّه "نبات مشجر له أغصان،...ويقال إنّ المرجان إذا كان في قعر البحر إنما هو رطب لين فإذا مسه الهواء اشتد. ويخرج منه في ذلك البحر كل سنة من القناطير"[116]، ويثبت نفسه بطرفه الأسفل بصخرة أو عشب، وفتحة فمه التي في أعلى جسمه، محاطة بعدد من الزوائد تستعملها في غذائه، فإذا لمست فريسة هذه الزوائد، وكثيرا ما تكون من الأحياء الدقيقة كبراغيث الماء، أصيبت بالشلل في الحال.

ومن دلائل قدرة الخالق، إن حيوان المرجان يتكاثر بطريقة أخرى هي التذرر، وتبقى الأذرار الناتجة متحدة مع الأفراد التي تذررت منها، وهكذا تتكون شجرة المرجان التي تكون ذات ساق سميك، تأخذ في الدقة نحو الفروع التي تبلغ غاية الدقة في نهايتها، ويبلغ طول الشجرة المرجانية ثلاثين سنتيمترا والجزر المرجانية الحية ذات ألوان مختلفة، نراها في البحار صفراء برتقالية، أو حمراء قرنفلية، أو زرقاء زمردية أو غبراء باهتة، والمرجان الأحمر هو المحور الصلب المتبقي بعد فناء الأجزاء الحية من الحيوان، وتكون الهياكل الحجرية مستعمرات هائلة، أمّا عن أنواعه وأفضلها فيخبرنا الدمشقي قائلا: "أفضله ما عظم منه وغلظ ويسمى الشاخ وما اشتدّت حمرته وسبط وقطعت العقد الكبار من أسافله وهو يسمى السبد وسلم من السّوس. وأدونه ما دّق منه ويسمى ساق الجراد وأردأه مادق منه سوس والواقع والناقص اللون"[117]، "أمّا الأشياء المفسدة له فإنّ النار تحرقه والحموضات تبيضه وكذلك إن جعل في وعاء كان فيه خمر أو أثر خلّ فإنّه يتلفه"[118].

إنّ أقدم الإشارات المصدرية المتعلقة بالثروة المرجانية هي تلك التي أوردها كل من ابن حوقل في"صورة الأرض"، والبكري في"مسالكه"، وهي الإشارات نفسها تقريبا التي أوردها الإدريسي في "نزهته"، وصاحب "الاستبصار"؛ فالمادة المرجانية شهدت انتشارا عبر العديد من الأعماق البحرية بالغرب الإسلامي، منها بمدينة طبرقة الواقعة على البحر ومنها "يخرج المرجان، و... يحمل إلى بلاد الدنيا"[119]، وبشرقي مدينة بونة "مرسى الخرز"، "فيه معدن المرجان..."[120]، و"لا معدن له غيرها ولا يخرج إلاّ من بحرها"[121]، ويعرف ابن حوقل (ق4هـ/10م) بمرسى الخرز فيقول: "قرية غير أنها نبيلة لمكان المرجان وحضور من يحضرها من التجار، ولا أعرف في شيء من البحار له نظيرا في الجودة، ولا يوجد المرجان في مكان غير هذه القرية المدعوة بمرسى الخرز ومدينة تنس وبمدينة سبتة..."[122]، وعن صيد المرجان بمدينة سبتة يخبرنا الإدريسي قائلا:"ويصاد بمدينة سبتة

شجر المرجان الذي لا يعدله صنف من صنوف المرجان المستخرج بجميع أقطار البحار وبمدينة سبتة سوق لتفصيله وحكه وصنعه خرزا وثقبه وتنظيمه ومنها يتجهز به إلى سائر البلاد وأكثر ما يحمل إلى غانة وجميع بلاد السودان لأنه في تلك البلاد يستعمل كثيرا"[123].

كما نجد المرجان في بحر الأندلس[124]، وفي هذا الصدد يذكر البكري قائلا:" يخرج من بحر الأندلس، وقد خرج منه في ساحل بحر البيرة من عمل المرية ما لقطر منه في أقل من شهر نحو ثمانين قنطاراً"[125]، ويضيف القزويني أنّ "...الغواصون يتزلون عليه ويقطعونه"[126]، ونجد المرجان أيضا في ساحل مدينة بلبش[127]، وأدخلت مادة المرجان في بناء المنبر في المسجد الجامع (بقرطبة)[128].

* **عملية استخراج المرجان**:ومن الطريف هنا أن نشير إلى وصف المقدسي لعملية استخراج المرجان في بلاد المغرب (افريقية) بقوله: "يخرج من جزيرة في البحر اسم مدينتها مرسى الخرز يدخل إليها في طريق دقيق، كالمهدية في بحرها يرتفع القرن وهو المرجان لا معدن له غيرها، وهي جبال له في البحر يخرجون إلى جمعة في قوارب ومعهم صلبان من خشب قد لفوا عليها شيئاً من الكتان المحلول وربطوا في كل صليب حبلين يأخذهما رجلان فيرميان بالصليب ويدير النواتي القارب فيتعلق بالقرن ثم يجذبونه فمنهم من يخرج عشر آلاف إلى عشرة دراهم ثم تجلى في أسواق لهم ويباع جزافاً رخيصاً، ولا اشراق له قبل جليه ولا لون"[129]، وهي نفس الطريقة التي كان يقلع بها الغاصة المرجان في بحر عدن حسب البيروني[130]، وكان صاحب الاستبصار قد وصف كيفية استخراجه قائلا: "وصورة إخراجه من البحر أنّ لهم خشبا قد صلب بعضها على بعض، ويلقون عليها جرات الكتان أو القنب، يثقلونها بمراسم، ويلقونها في البحر ويمشون بالزوارق، فينجر ذلك الكتان على قعر البحر فينكسر المرجان ويتعلق بالكتان، فيتفقدونه ويأخذون ما تعلق منه"[131].

ومن الدلائل الكاشفة عن كيفية صيد المرجان ما أخبرنا به الإدريسي حول مدينة مرسى الخرز (قرب بونة) قائلا: "المرجان يوجد بها كثيرا وهو من أجل جميع المرجان الموجود بسائر الأقطار مثل ما يوجد منه بمدينة سبتة وصقلية... ويقصد التجار إلى هذه المدينة فيخرجون منه الكثير إلى جميع الجهات. ومعدن هذا المرجان في هذه المدينة مخدوم في كل سنة ويعمل به في كل الأوقات الخمسون قاربا والزائد والناقص وفي كل قارب العشرون رجلا وما زاد ونقص والمرجان... يصاد بآلات ذوات ذوائب كثيرة تصنع من القنب تدار هذه الآلة في أعلى المراكب فتلتف الخيوط على

ما قاربها من نبات المرجان إلى أنفسهم ويستخرجون منه الشيء الكثير مما يباع بالأموال الطائلة وعمدة أهلها على ذلك"[132].

غير أن القزويني يفصل في الكيفية التي كانت تستخرج بها هذه المادة من ذات المدينة، فيقول: "فيجتمع بها التجار ويستأجرون أهل تلك النواحي على استخراج المرجان من قعر البحر، حكى من شاهد كيفية استخراجه أنهم يتخذون خشبتين، طوال كلّ واحد ذراع، ويجعلونهما صليبا ويشدون فيه حجرا ثقيلا، ويصلونه بحبل ويركب صاحبه في قارب، ويتوسط البحر نصف فرسخ ليصل إلى منبت المرجان. ثمّ يرسل الصليب إلى البحر حتى ينتهي إلى قرار البحر، ويمرّ بالقارب يمينا وشمالا ومستديرا ليتعلّق المرجان في ذوائب الصليب، ثم يقلعه بالقوة ويرقيّه فيخرج جسم أغبر اللون، فيحك قشره فيخرج أحمر اللون حسنا"[133]، كما كان على سواحل مدينة طبرقة "قوم لهم مراكب وزوارق ليس لهم حرفة إلاّ إخراج المرجان من قعر البحر"[134]، ومن المؤكد أن أهل الأندلس كانوا يستخدمون نفس طريقة أهل المغرب في استخراج المرجان من مياه البحر.

ولحماية هذه الثروات وعقلنة عملية استخراجها فإن الدولة كانت تسهر مباشرة على عمليات الاستخراج بتعين أمناء ونظار يتولون الإشراف على عمليتي الاستخراج والبيع، وعن ذلك يخبرنا ابن حوقل (ق4هـ/10م) قائلا: "ولسلطان المغرب بها (قرية مرسى الخرز) أمناء على ما يخرج منه، وناظر يلي صلاتها ومعاونها وما يلزم ما يخرج من هذا المعدن. وللتّجار بها أموال كثيرة من أقطار النواحي عند سماسرة وقوف لبيع المرجان وشراه، ويعمل بها في أكثر الأوقات في إثارة المرجان الخمسون قاربا..."[135]، أي كانت السفن تخرج مجتمعة تصل إلى خمسين قاربا وفي كل قارب حوالي عشرين بحارا، "والعاملون فيها يكثرون الأكل والشرب والخلاعة، ولهم بها مكاسب وافرة وينتبذون نبيذ العسل فيشربونه من يومه ويسكرهم الاسكار العظيم"[136].

لم يختلف المرجان عن غيره من الثروات البحرية النفعية، إذ كان مادة ضرورية حاضرة لصنع أشياء ثمينة، من ذلك ما يخبرنا به التفاشي (651هـ) قائلا: "يقطع من المرجان قطع كبيرة نادرة ترفع لملك افريقية يصنع له منها محابر ونصب سكاكين، ورأيت منها محبرة طولها شبر ونصف في عرض ثلاثة أصابع..."[137]، ويضيف المؤلف نفسه أنّ "من الناس من يتخذ منه فصوص خواتم فإن أراد أن يكتب على شيء ما أحب حمل على الفص شمعا ثم نقش في الشمع برأس إبرة ما أراد من الكتابة...ثم ألقاه في خل وتركه يوما وليلة من الغذ فإنه يحمد موضع الكتابة المحفورة"[138].

كما ويفيدنا القزويني نقلا عن أحد النصوص القديمة أن المرجان ينبت في البحر أحمر اللون، وإذا كلس عقد الزئبق وصبغه بلون الذهب وهو يدخل في معالجات العين ويصلب الحدقة، وحمله يطفئ سورة الدم ويذهب أيضاً بقذى العين وحمرة عروقها، ويضيف أنّ فروع البسد هي المرجان ومن أنواع المرجان أزرق اللون وأبيضه ولا يتغير عن ذلك وهذان النوعان في كل بحر موجودان [139].

ومن هنا نستنتج أن استخراج اللؤلؤ والمرجان كان يشكل مورداً اقتصادياً لسكان السواحل بالغرب الإسلامي، حيث كانت مهنة الغوص تعد من المهن الرئيسة التي كان يمارسها سكان هذه السواحل، ومصدر رزق لهم، إي لم يقف الأمر عند استغلال الأسماك بل تعداه إلى استخراج ثروات أخرى أهمها اللؤلؤ والمرجان، وهما من الأحجار الكريمة ذات الأصول الحيوانية، والتي تعيش في البحار؛ إذ يتكون اللؤلؤ داخل حيوان المحار ويتكون المرجان من حيوان المرجان.

**5- صوف البحر**: لم يكن العنبر واللؤلؤ والمرجان الثروات البحرية الثمينة الوحيدة المعروفة بالغرب الإسلامي، إنّما ظهرت كائنات بحرية أخرى كان لها أهمية بالغة، منها الحيوان الذي عرف بأبي قلمون، عرفه المقدسي أثناء وصفه لإقليم الأندلس قائلا: "وهي دابة تحتك بحجارة على شط البحر فيقع منها وبر في لين الخز لونه لون الذهب لا يغادر منه شيئاً وهو عزيز الوجود، فيجمع وينسج منه ثياب تتلون في اليوم ألواناً، ويمنع السلطان من حمل ذلك إلى البلدان إلاّ ما يخفى عنهم، ربما بلغ الثوب عشرة آلاف دينار"[140]، ويؤكد الاصطخري وجوده بسواحل مدينة شنترين الأندلسية، ومن الواضح حسب ما أخبرنا به عن هذه المادة أن الدابة التي أشار إليها المقدسي تخرج في وقت من السنة وليس على طولها، ويضيف عن رقابة السلطة موضحا بقوله: "... ويحجر عليها ملوك بني أمية ولا ينقل إلاّ سرا وتزيد قيمة الثوب على ألف دينار لعزته وحسنه"[141].

ومن المصادر الوسيطية الدالة على قيمة الوبر التي تضعه هذه الدابة، كتاب "آثار البلاد وأخبار العباد"، إذ يؤكد مؤلفه ذلك بقوله: "وهي قليلة عزيزة جدّا فيجمعها الناس وينسج منها الثياب فيحجر عليها ملوكهم ولا تنقل من بلادهم إلاّ بالخفية"[142]، كما تم استخراج هذه المادة من سواحل إفريقية، وحسب التيجاني اختص بها بحر صفاقس "وببحرها يوجد صوف البحر الذي يعمل منه الثياب الرفيعة الملوكية"[143]، وهو ما أكده القلقشندي اعتمادا على ابن سعيد بقوله: "ومن بحرها يستخرج الصّوف المعروف عند العامة بصوف السمك المتّخذة منه الثياب النّفيسة. قال ابن سعيد: أنا رأيته كيف يخرج، يغوص الغوّاصون في البحر فيخرجون كمائم شبيهة بالبصل

بأعناق، في أعلاه زويرة، فتنشر في الشمس فتنفتح تلك الكمائم عن وبر، فيمشط ويؤخذ صوفه فيغزل، ويعمل منه طعمة لقيام من حرير، وتنسج منه الثياب"[144].

خلاصة القول، إنّ ثراء سواحل الغرب الإسلامي بالموارد البحرية الحية كان معروفا منذ القدم، ليستمر هذا التنوع حتى الفترة الوسيطية وما بعدها، وقد أكدت العديد من المصادر الجغرافية المغاربية ذلك، منها ما أورده الشريف الإدريسي في كتابه "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" من تفاصيل عما كانت تعرفه بعض موانئ المنطقة من نشاط صيد، كما أكدت مصادر أخرى خبرة وحنكة الصيادين باستغلال الموارد وتصنيعها وتسويقها، وأبرزت أنّ الثروة السمكية مثلت رافدا مهما بالنسبة للعديد من الأفراد.

**الهوامش:**

1- سورة فاطر، الآية 12.

2- اليعقوبي، أحمد أبي يعقوب بن واضح، البلدان، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 1988م، ص.122

3- المصدر نفسه، ص123.---- 4- نفسه، ص.123

5- ابن الجزار القيرواني، الاعتماد في الأدوية المفردة، مكتبة السليمانية، اسطمبول، تركيا، تحت رقم 01481، ورقة 5وجه/ الدمشقي، أبو الفضل (ت 636هـ/1238م)، عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، دار الشرق العربي، بيروت، د/ت، ص116.

6- المصدر نفسه، ورقة 5 وجه.

7- ابن الفضل العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار في الحيوان والنبات والمعادن، تحقيق عبد الحميد صالح حمدان، مكتبة مدبولي، ط2، 1996، ص177/ الدمشقي، المصدر السابق، ص116.

8- شيخ الربوة، شمس الدين، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، تحقيق غسان داود الناصير وآخرون، دار العراب للدراسات للنشر والترجمة، دمشق، 2013، ص166.

9- ابن وافد الأندلسي، الأدوية المفردة، تحقيق أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2000، ص165.

10- ابن البيطار، الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، م2، ج3، ص183.

11- الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتلة الثقافة الدينية، القاهرة، 1994، ج1، ص66

12- الإدريسي، المصدر نفسه، ص66/ ابن البيطار، المصدر السابق، ج3، ص183/ ابن رشد، أبو الوليد، الكليات في الطب، تحقيق أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2005، ص.331

13- المسعودي، أخبار الزمان، دار الأندلس، بيروت، ط3، 1978، ص45.---- 14- القزويني، عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، ص116.---- 15- المصدر السابق، ص.190

16- http://egypt-blew.blogspot.com/2013/10/Sperm-Whale.html

17- http://www.gafrd.org/posts/116362 /http://www.brooonzyah.net/vb/t158864.html

18- الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي، محمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1983م، ج2، ص269.

19- ابن الجزار، المصدر السابق، ورقة 5 وجه/ ابن الفضل العمري، المصدر السابق، ص 177/ شيخ الربوة، المصدر السابق، ص.166

20- شيخ الربوة، المصدر السابق، ص.166

21- الدمشقي، أبو الفضل (ت 636هـ/1238م)، الإشارة إلى محاسن التجارة، تح: محمود الأرناؤوط، دار صادر، بيروت، ط1، 1999، ص31/ المغربي، احمد بن عوض (حيا في النصف الأخير من القرن 10واوائل القرن 11هـ/ 16-17م)، قطف الأزهار في خصائص المعادن والأحجار ونتائج المعارف والأسرار، تحقيق، بروين بدري توفيق، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ط1، 1990، ص36- 37.

22- المسعودي، المصدر السابق، صص 45- 46/ ابن غالب، فرحة الأنفس، ص.40

23- البلدان، صص 122- 123.---- 24- الكليات في الطب، ص.331

25- الاعتماد في الأدوية المفردة، ورقة 6 وجه.---- 26- أحسن التقاسيم، ص .198

27- الإصطخري، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي، مسالك الممالك، دار صادر، بيروت، 1927، ص.42

28- القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، ص452/ شيخ الربوة، المصدر السابق، ص.245

29- البكري، أبو عبيد الله، المسالك والممالك، تحقيق جمال طلبة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2003م، ج 2، ص384/ الحميري، روض المعطار...، ص 120

30- ابن غالب، فرحة الأنفس، مجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد1، الجزء 2، 1955م، ص291/

Hamed-Razi, La Description de L'Espagne, provençal, Al-Andalus, vol12, paris, 1953, p.90-91;/القزويني، المصدر السابق، ص555.

31- ابن غالب، المصدر السابق، ص290/شيخ الربوة، المصدر السابق، ص245.--- 32- الحميري، روض المعطار، ص .215

33- ابن سعيد المغربي، ج1، ص381/ مجهول، جغرافية الأندلس، تحقيق عبد القادر بوباية، مؤسسة البلاغ للنشر والدراسات والأبحاث، الجزائر، 2013، ص 131.---- 34- فرحة الأنفس، ص299.---- 35- الاعتماد في الأدوية، ورقة 6 وجه.

36- ابن البيطار، الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، م2، ج3، ص.183

37- ابن زهر، عبد الملك، كتاب الأغذية، تحقيق إكبيراثيون غارثيا، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، معهد التعاون مع العالم العربي، مدريد، 1992، ص121/ ابن وافد، المصدر السابق، ص166.---- 38- ابن رشد، المصدر السابق، ص.331

39- داود بن عمر الأنطاكي، مجمع المنافع البدنية، تحقيق أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2003، ص51.

40- ابن الجزار القيرواني، طب زاد المسافرين للفقراء والمساكين، تحقيق مختار سالم، مكتب المعارف، بيروت، ط1، 2004، ص.29

41- القلقشندي، المصدر السابق، ج1، صص 118- 119.

42- ابن حوقل، صورة الأرض، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د/ت، ص95.---43- نزهة المشتاق في إختراق الأفاق، ج1، ص273.---

44- وصف إفريقيا، ج2، ص42.----45- صورة الأرض، ص.77

46- الدباغ، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الأنصاري، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2005م، ص156.--

-- 47- البكري، المصدر السابق، ج2، ص.237

48- مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، وصف مكة والمدينة، ومصر، وبلاد المغرب، تحقيق سعد زغلول عبد الحميد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1985م، ص.126

49- الإدريسي، المصدر السابق، ج1، ص268/الحميري، المصدر السابق، ص.184

50- البكري، المصدر السابق، ج2، ص238/مجهول، الاستبصار، ص.127

51- الإدريسي، المصدر السابق، ص291/الحميري، المصدر السابق، ص190- .191

52- مجهول، الاستبصار، ص126/الحميري، المصدر السابق، ص.115

53- البكري، المصدر السابق، ج2، ص216/ القزويني، المصدر السابق، .173

54- مجهول، الاستبصار، ص121.----55- البكري، المصدر السابق، ص237.----56- مجهول، المصدر السابق، ص.125

57- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.----58- البكري، المصدر السابق، ص.288

59- القزويني، المصدر السابق، ص534/ ابن الوردي، سراج الدين، خريدة العجائب وفريدة الغرائب، دار الشرق العربي، بيروت، د/ت، ص149.--

-60- ابن الوردي، المصدر نفسه، ص149.----61- الإدريسي، المصدر السابق، ص.529

62- Hamed-Razi, op, cit, p62.

63- العذري، ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك، تحقيق الأهواء عبد العزيز، منشورات معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، 1965م،ص 96.

64- الإدريسي، المصدر السابق، ص564/ الحميري، المصدر السابق، ص.186

65- أبو الفضل العمري، المصدر السابق، ص235.----66- مجهول، جغرافية الأندلس، ص.161

67- ابن البيطار، المصدر السابق، ج2، صص85.----68- ابن غالب، المصدر السابق، ص.296

69- الإدريسي، المصدر السابق، ص565.----70- الزهري، أبو عبد الله، كتاب الجعرافية، تحقيق محمد حاج صادق، مكتبة الثقافة الدينية، الظاهر، د/ت، ص120.----71- الحميري، المصدر السابق، ص .101

72- ابن البيطار، المصدر السابق،م1، ج1، ص194.---73- الحميري، المصدر السابق، ص.111

74– الكليات في الطب، ص275.---75– عبد الكريم، التميمي، المصدر السابق، ج2، ص، 193،2).

76– الغبريني، أبو العباس، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م، ص162.----77– ابن حوقل، المصدر السابق، ص 76.

78– اللبيدي، أبو القاسم، مناقب أبي اسحاق الجبنياني ومناقب محرز بن خلف، تحقيق روحي إدريس، تونس، 1959م، ص52.

79– ابن قنفذ، أبو العباس أحمد بن الحسن القسنطيني، أنس الفقير وعز الحقير في التعريف بالشيخ أبي مدين وأصحابه رضي الله عنهم، تحقيق أبي سهل نجاح عوض صيام، دار المقطم، القاهرة، ط1، 2002م، ص.45

80– المصدر نفسه، ص140.----81– ابن سعيد، المصدر السابق، ج 4، ص214.

82– اللبيدي، المصدر السابق، ص52.---83– الغبريني، المصدر السابق، ص.136

84– ابن الزيات، التادلي، التشوف إلى رجال التصوف، تحقيق علي عمر، مكتبة الثقافية الدينية، القاهرة، ط1، 2007م، ص.149

85– البكري، المصدر السابق، ج2، ص.237

86– السقطي، أبو عبد الله، في آداب الحسبة، أعده للنشر ج. كولان، ل. بروفنصال، معهد الدراسات العليا المغربية، 1931م، ص34.

87– ابن زهر، المصدر السابق، ص.38

88– البكري، المصدر السابق، ص216/ مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، ص125/ القزويني، المصدر السابق، ص173.

89– الحسن الوزان، المصدر السابق، ج1، ص325.----90– المصدر السابق، ص.326

91– ابن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972م، ص36.---92– قدوري، طاهر، المرجع السابق، ص48.----93– ابن غالب، المصدر السابق، ص.296

94– المقري، شهاب الدين التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1997م، ج1، ص.226

95– سورة الرحمن، الآيات، 19، 20، 21، 22، 23. تفسير الآية ينظر الفخر الرازي، تفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي، لبنان، ذ3، 1999، المجلد العاشر، ص352– ص.376

96– الرحمن، الآية 22– الواقعة، الآية 23– الطور، 24– الإنسان، الآية 19– الحج، الآية 23– فاطر، الآية .33

97– البيروني، أبو الريحان محمد بن أحمد، الجماهير في معرفة الجواهر، عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 2011، ص119.

98– القزويني، أثار البلاد وأخبار العباد، ص77/ البيروني، المصدر نفسه، ص119.

99– الدمشقي، الإشارة إلى محاسن التجارة، ص31–32/ البيروني، نفسه، ص116.

100– التيفاشي، أبو العباس أحمد بن يوسف، أزهار الأفكار في جواهر الأحجار، المكتبة الرقمية العالمية، ورقة 2/ ابن ساعد الأنصاري جمال الدين محمد بن إبراهيم، نخبة الذخاير في أحوال الجواهر، المكتبة الرقمية، ورقة7.

101– على على السكري، علوم الأرض، دار المعارف، القاهرة، (د/ط)، (د/ت)، ص120

102– ابن الوردي، المصدر السابق، ص194– 195.---103– الدمشقي، المصدر السابق، ص31– 32/ التيفاشي، المصدر السابق، ورقة 6.---104– ابن الوردي، المصدر السابق، ص195.----105– على على السكري، المصدر السابق، ص .120

106– البكري، المصدر السابق، ج2، ص385/ شيخ الربوة، ص73.----107– الجعرافية، ص.30

108– التجاني، أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد، الدار العربية للكتاب، تونس، تقديم حسن حسني عبد الوهاب، 1981، ص68.

109– التيفاشي، المصدر السابق، ورقة 4–5.----110– الإدريسي، المصدر السابق، ج2، ص552.

111– المصدر نفسه، ص552.---112– ابن رشد، المصدر السابق، ص329.---113– ابن زهر، المصدر السابق، ص .106

114– صورة الأرض، ص77.---115– أزهار الأفكار في جواهر الأحجار، ورقة .114

116– مجهول، الاستبصار، ص126/التيفاشي، المصدر السابق، ورقة11.---117– الدمشقي، المصدر السابق، ص29

118– المصدر نفسه، ص29.---119– مجهول، الاستبصار، ص 129.

120– ابن حوقل، صورة الأرض، ص 76/ البكري، المصدر السابق، ص234/ الحسن الوزان، المصدر السابق، ج2، ص.62

121– المقدسي، المصدر السابق، ص 236.---122– صورة الأرض، ص77/التفاشي، المصدر السابق، ورقة .111

123– نزهة المشتاق، ج2، ص529.---124– المسعودي، أخبار الزمان، ص .48

125– المسالك والممالك، ص385.---126– عجائب المخلوقات، صص 140– .141

127– شيخ الربوة، المصدر السابق، ص243.---128– ابن غالب، المصدر السابق، ص.29

129– أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص239.---130– البيروني، المصدر السابق، ص .193

131- مجهول، المصدر السابق، ص126.---132- الإدريسي، المصدر السابق، ج1، صص 290- .291

133- آثار البلاد وأخبار العباد، ص261/ عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، ص.184

134- مجهول، الاستبصار، ص126/التيفاشي، المصدر السابق، ورقة11.---135- صورة الأرض، ص.77

136- المصدر نفسه، ص77.---137- أزهار الأفكار في جواهر الأحجار، ورقة 111

138- المصدر نفسه، ورقة 113.---139- القزويني، عجائب المخلوقات، ص197؛ شيخ الربوة، نخبة الدهر، ص73

140- احسن التقاسيم، ص240.---141- الاصطخري، المسالك والممالك، ص42/ القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، ص542..

142- القزويني، المصدر نفسه، ص542.---143- التيجاني، أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد، رحلة التيجاني، تقديم حسن حسني عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب، تونس، 1981، ص.68

144 - القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة، 1963م، ج7، ص103.

ABSTRACT: *coastal population in the West Muslim performed hunting process during the middle age, Marine Fish are a major source of food to the large number of members of this geographical area, as bursting of the marine environment and other living other than fish that comes in the forefront of living resources of this environment resources; there are whales source material Amber In addition to the pearl and Coral sea and the precious wool, as well as other marine plants.*